دراسة تحليلية في رواية

«النيل يجري شمالاً «النواطير»

للروائي إسماعيل فهد إسماعيل

إعداد

الدكتور / مبارك عادل الميع

دكتور منتدب في كلية التربية الأساسية

دولة الكويت

الدكتور /خلف مطلق العازمي

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها

كلية التربية الأساسية، دولة الكويت

دراسة تحليلية في رواية «النيل يجري شمالاً - النواطير» للروائي إسماعيل فهد إسماعيل

مبارك عادل الميع، خلف مطلق العازمي

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية الأساسية، دولة الكويت

البريد الالكتروني: Khalaf_alazmi@yahoo.com

ملخـــص:

يتحدَّث هذا البحث عن «النواطير» وهي الجزء الثاني من السلسلة الروائية للكاتب الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل، وتحديدًا رواية «النيل يجري شمالاً». وهو أحد كُتَّاب الواقعية في العالم العربي الذين آمنوا بالأيديولوجيا التي أرخت ظلالها على المشهد السياسي العربي وصولاً إلى الإنسان العربي المقهور في أزمنة الاستعمار وما تلاها. وتنتمي هذه الرواية لجنس الرواية التاريخية التي تنطلق من رحاب الرومانسية وتؤصلها أسباب فلسفية، والتي أحيانًا قد لا تتقيد بالتاريخ وربما تنحو إلى الطابع الشعبي في استناداتها التاريخية، غير أن الروائي إسماعيل فهد أربك القارئ في هذه الرواية باستناده إلى ذكر مصادره التاريخية الدقيقة ممَّا يحدو بالمتلقي متسائلاً أيقرأ خيالاً أم حقيقة. وتقوم الرواية على الصراع بين المصريين أهل الحقّ وحكامهم المماليك الطغاة الذين لا يختلفون عن المحتلين الجدد من فرنسا. ويتم في هذه الرواية الكشف عن الأوضاع الاجتماعية للشعب المصري الذي تتملكه العروبة وسط ظروف القهر، في ظل حوارات دارت بين الشخصيات التي ألقت بظلالها على المجتمع الفرنسي داخليًا وشرحتْ لنا تفرُّق كلمتهم سياسيًا فيما يُعرف بوجهات النظر السياسية التي تخالف السياسة الفرنسية الحاكمة والنُخب السياسية. وعبَّر ذلك الاختلاف عن امتعاض جزء كبير من الفرنسيين من الغزو الفرنسي الخارجي لمصر ومالطا من أجل الطموح الشخصي لنابليون الذي سعى لجر هذا النزاع خارجيًا. في حين أن وجهة النظر الأخرى ترى ضرورة الحملة الفرنسية لحماية الثورة الفرنسية ضد الأعداء المتربصين بها وخاصةً مملكة بريطانيا العظمى. وكل ذلك السرد والحوار يسير في خطٍّ عام ضمن الأحداث التاريخية ويغلفها الكاتب بالرمزية التي شكَّلت الملمح

الأكثر إضـــاءة في مجمل الرواية أو لعلها القضـــية الفنية الأكثر إلحاحًا في ســـياق الثلاثية كلها. وكان هاجس الكاتب في توظيف التاريخ وتحويره لخدمة أجندته السياسية طاغيًا، وربما يبدأ ذلك منذ مطلع عنوانه الثانوي «النواطير» للجزء الثاني للسلسلة. وكشفت الرواية عن منظومة القيم الثقافية التي تحكم منطق المصريين، ورسمت رؤية موازية للواقع المصري بدءًا من النهضة الأولى لمصر وصولاً إلى الزمن المتشـــكل في ســـبعينيات القرن العشـــرين، حيث تمَّ تقويض النهضـــة العربية الثانية التي بدأت بالمشـــروع القومي. ولعل من العيوب الملموســـة في الرواية أن الأحداث والحوارات على الرغم من تنوعها لا تمنح القارئ دورًا في الاســـتنتاج أو التوقُّع لأســـباب ذكرتها في ثنايا البحث، مما أفقد متعة الاســـتكشـــاف التي تُعلّق المتلقي بالعمل الأدبي وتشـــدّه. وقد تتوه الرواية أحيانًا عن الخيط الذي ينظّم عمل راويها، ويظهر ذلك في صـــعوبة أن يصـــل القارئ إلى حبكة أو عقدة رئيســـة تصـــل إليها الأحداث المختلفة حتى بدت هذه الأحداث على شـــكل لقطات فيلمية غير مترابطة على الرغم من أن الزمان والشخصيات والأمكنة تبقى عوامل مشتركة فيها.

الكلمات المفتاحية: النيل، النواطير، الاستعمار، الزمان، الشخصيات والأمكنة.

.

An Analytical Study of the Novel " The Nile flows Northwards- Janitors"

For the Novelist Ismail Fahd Ismail

By: Mubarak Adel Al-Mayi
&
Khalaf Mutlaq Al-Azmi
Department of Arabic Language and its Literature
College of Basic Education
Kuwait

Abstract

This research demonstrates "The Janitors" which is the second part of the Kuwaiti writer Ismail Fahd Ismail's novel series specifically his novel "The Nile Flows Northwards". Ismail Fahd Ismail is one of the writers of realism in the Arab world who believed in the ideology that cast its shadows over the Arab political scene including the oppressed Arab individual during the colonial era and far beyond. This novel belongs to the historical genre which starts from the realm of romanticism and has its philosophical purposes that sometimes may not adhere to history and may tend to be popular in its historical references. Nevertheless, the novelist Ismail Fahd confuses the reader in this novel by citing his accurate historical sources, which leads the recipient to wonder whether he is reading fiction or fact. The novel is based on the conflict between the Egyptians, the righteous and their rulers, the Mamluk tyrants, who are not different from the new occupiers from France. In this novel, the social conditions of the Egyptian people, who are dominated by Arabism amid conditions of oppression, are revealed in light of the dialogues that took place between the characters that cast their shadows on the French society internally and explained to us the political division of their speech regarding what is known as political viewpoints that contradict the ruling French policy and the political elites. This difference reflected the resentment of a large part of the French from France's foreign invasion of Egypt and Malta just to satisfy the personal ambition of Napoleon, who sought to extraterritorially take this dispute. The other viewpoint sees the French campaign necessary to protect the French Revolution against its enemies, especially the Kingdom of Great Britain. All such narrative and dialogue follow a public line within historical events and the writer encapsulates it with the symbolism that has shaped the most illuminating hint of the whole novel or perhaps the most pressing artistic issue in the context of the whole trilogy. The writer's obsession with the employment and transformation of history to serve his political agenda has been overwhelming, perhaps starting from the beginning of his subtitle "Janitors" for the second part of the series. The novel revealed the discipline of cultural values that govern the logic of the Egyptians and drew a parallel vision of the Egyptian reality starting from the first renaissance of Egypt to the time formed in the seventies of the twentieth century, where the second Arab renaissance, which began with the national project, was undermined. It may be a tangible flaw in the narrative that despite its diversity, events and dialogues do not give the reader a role in concluding or anticipating for the reasons mentioned during the research, thus losing the pleasure of exploring that suspends, intensifies, and attaches the recipient to the literary work. The novel may sometimes lose track with the thread that organizes its narrator's work, and this is apparent in the difficulty the reader experiences in his trial to reach a major plot or peak that various events lead to until these events appear in the form of uncoordinated film footage even though time, characters and places remain common factors.

Key words: The Nile, Janitors, Colonialism, Time, Characters, and Places.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطة البحث: تكون البحث من مبحثين وعدة مطالب وخاتمة على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بالروائي إسماعيل فهد إسماعيل، وشمل مطلبين:

- المطلب الأول: نبذة عن الروائي إسماعيل فهد إسماعيل:
- المطلب الثاني: بين الرواية والتاريخ

المبحث الثاني: تحليل الرواية، وشمل ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: الرواية في سياق الثلاثيّة (النيل يجري شمالاً)
- المطلب الثاني: النيل يجري شمالاً- النواطير.
- المطلب الثالث: الرمزية في الرواية.

الخاتمة: وبها أبرز الاستنتاجات

المبحث الأول

التعريف بالروائي إسماعيل فهد إسماعيل

المطلب الأول: نبذة عن الروائي إسماعيل فهد إسماعيل.

يُعدّ الكاتب والروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل (١٩٤٠-٢٠١٨) أحد كتاب الواقعيّة في العالم العربي، ويشير إلى ذلك مجمل نتاجه الأدبيّ، ولا سيّما انه تبنى قضايا المهمشين والمضطهدين في العالم العربي، فكان أوّل من رسم ملامح قضية الـ«بدون» على سبيل المثال، ولقد كان هاجسه الأول، الانتصار لهوية غير المعتدّ بهم في العالم العربي، وكان ممن قاوموا بشراسة الغزو العراقي عام١٩٩٠، وذادوا عن انتمائهم المؤجل، في الحصول على الهوية الكويتية، ولذلك عدّ إسماعيل فهد إسماعيل، روائي قضية بامتياز، فضلاً عن أنّه أول من أسس فنّ الرواية في وطنه الكويت.

اشتغل الروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل على الموروث العربي، دامغًا بأقصى رمزية

الإرث العربي الممتدّ، بشكل ضمني ووظيفي، وترك في فنّ الرواية العديد من الإصدارات، هي تباعًا: كانت السماء زرقاء (١٩٧٠)، المستنقعات الضوئية (١٩٧١)، الحبل (١٩٧٢)، الضفاف الأخرى (١٩٧٣)، روايتا ملف الحادثة ٦٧ والشياح (١٩٧٥)، الطيور والأصدقاء (١٩٧٩)، خطوة في الحلم (١٩٨٠)، النيل يجري شمالاً- البدايات (١٩٨٣)، النيل يجري شمالاً- النواطير(١٩٨٤)، النيل الطعم والرائحة (١٩٨٩)، إحداثيات زمن العزلة رواية سباعية، الشمس في برج الحوت- الحياة وجه آخر- قيد الأشياء- دوائر الاستحالة-ذاكرة الحضور- الأبابيليون- العصف (١٩٩٦)، يحدث أمس- بعيداً إلى هنا (١٩٩٧)، الكائن الظل (١٩٩٩)، سماء نائية (٢٠٠٠)، في حضرة العنقاء والخلّ الوفي(٢٠١٤) وهي الرواية التي أدرجت العام ٢٠١٥ ضمن القائمة الطويلة للبوكر، الظهور الثاني لابن لعبون- السلبيات (٢٠١٥). كما له في القصة والمسرحية والدراسات، ومما يسجل لصالحه، ترحيب الأديب العربي صلاح عبد الصبور، بباكورة أعماله الروائية، معتبراً ذلك، نقلة كبيرة حققت المفاجأة والإدهاش، والانقلاب على العرف العربي الموغل في فلسفة الانتماء للشعر بوصفة ديوان العرب، والهمّ المتفق عليه.

يقول الشاعر صلاح عبد الصبور في تصديره لرواية «كانت السماء زرقاء»: «كانت الرواية مفاجأة كبيرة لي، فهذه الرواية جديدة كما أتصوّر، رواية القرن العشرين قادمة من أقصى المشرق العربي لعنصر، حيث لا تقاليد لفنّ الرواية، وحيث ما زالت الحياة تحتفظ للشعر بأكبر مكان. ولم يكن سرّ دهشتي هو ذلك فحسب، بل لعل ذلك لم يدهشني إلا بعد أن أدهشتني الرواية ذاتها ببنائها الفني المعاصر المحكم، وبمقدار اللوعة والحب والعنف والقسوة والفكر المتغلغل كله في ثناياها»[١].

وفي حوار كانت قد أجرته معه الجزيرة ونشرته في موقعها الإلكتروني، تناول إسماعيل فهد

(١) إسماعيل فهد إسماعيل، رواية «كانت السماء زرقاء»، دار المدى للثقافة والنشر- دمشق، ط٣، ١٩٩٦م، ص٨.

إسماعيل جملة من الحقائق والتابوهات، منتقداً السياسة في شخص سَدَنتها الفاشلين الذين ساسوا تلك الحقبة بعنجهية ونفعية مكشوفة، مثلما سلّط الضوء على مجمل الهموم المجتمعية والثقافية، موبّخًا بأسلوب لبق جدّاً، الأنظمة التي جلبت للمنطقة صوراً من التشرذم والتنازع والشروخ المنعكسة سلبًا على كافة الشعوب العربية، وطعنتها في وحدتها ولغتها وهويتها. وتحدّثَ عما يمكن أن ندرجه مفاهيميًا في خانة أدلجة الثقافي، وتثقيف السياسة، والعكس بالعكس تمامًا، ورأى أنّ «أي كتابة مسؤولة يُفترض أن تتقنّع بما هو إيديولوجي تظلّ تتستّر عليه المعاني، بيد أن تناسق الإيديولوجية واتّساقها مع مواقف الكاتب، وأيضًا تطابقها مع الظرف على موضوعيته، تثوّر الحوار الضمني لدى المتلقّي المعني، دونما طمس أو خدش لذكائه ومشاعره، يعدِّه طرفًا بارزاً في إعادة بناء وإنتاج النص الذي يتلقّاه»[١].

وعلى ذلك فقد آمن إسماعيل بالأيديولوجيا وكان روائي قضية لم تزل تؤرق الرأي العام، وترخي ظلالها على المشهد السياسي العربي، كونه أفلح إلى حدّ بعيد في تدويل قضيته، أخذت معه الرواية العربية، برغم كونها جنسًا غربيًا دخيلاً، منعطفًا راحت تتشكّل له الملامح الأولى لخصوصية الأدب العربي الذي يحاور ويستنطق أزمتنا على تعدد مناحيها، بجنس كتابي اسمه رواية القضية. وما انفكّ إسماعيل يكرّس خطابه الروائي للذود عن أزمة حقيقية ومهيمنة، حتّ جعل من قضايا المهمّشين في العالم العربي قضيّته الشخصيّة بدءاً من البدون ووصولاً إلى الإنسان العربي المقهور منذ عصر روايته الأولى إلى أن وافته المنيّة محاولاً إنصاف هذا الإنسان، ليس فقط داخل وطنه الأمّ، بل على نحو شمولي الرؤى، يحتفي بقضيّة الهوية أينما كانت ومهما كانت في هذا العالم العربيّ الكئيب الفسيح.

(١) إسماعيل، إسماعيل فهد، القارئ أوسع أفقا من الكاتب، حوار على موقع الجزيرة الإلكتروني، أجراه هيثم حسين. https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2014/2/8/

المطلب الثاني: بين الرواية والتاريخ.

لا شك أن هنالك دوافع موضوعية تدفع كاتبًا مغموراً في النصف الثاني من القرن العشرين ليتناول مصر في ثلاثية روائيّة، ولا شكّ أن المضمونات السياسية هي التي تحرك الروائي ليكتب عملاً أدبيًا هو تاريخيّ أكثر مما هو أدبي في حقيقة الأمر، وإلا ما الذي يدفع إسماعيل فهد إسماعيل عراقي المولد يعيش في الكويت (لا يحمل جنسيتها آنذاك)، ليكتب عن حقبة تاريخيّة تخصّ مصر بالذات بين الأقطار العربيّة. إننا في هذه الرواية أمام محاولة إعادة في التأريخ يكتبها إسماعيل فهد إسماعيل لا الجبرتي.

تنتمي ثلاثية النيل للروائي إسماعيل فهد إسماعيل لجنس الرواية التاريخيّة، لكن ذلك لا يعني أننا نجد مواصفات قياسيّة في هذه الرواية تجعلنا معتقد بانتمائها لهذه الجنس من الرواية، إذ أنّ الرواية التاريخيّة نفسها نظريًا تقع في محل شد وجذب بين النقاد، فقد حاول العديد من النقاد وضع تعريف دقيق للرواية التاريخية، إلّا أنّ التعريفات الدقيقة في الدراسات الإبداعيّة والإنسانية بصفة عامة تبقى لازمة إشكالية مرافقة لطبيعة الفن عمومًا الذي يخضع للمعايير الذوقية المختلفة لا إلى المعايير العلميّة الرصينة، لذا فقد جرى الاتفاق على أنّ الرواية التاريخيّة عمل فنيّ يتّخذ من التاريخ مادة للسرد، ولكن دون النقل الحرفيّ له؛ حيث تحمل الرواية تصوّر الكاتب عن المرحلة التاريخيّة وتوظيفه لهذا التصوّر في التعبير عن المجتمع أو الإنسان في ذلك العصر، أو التعبير عن المجتمع في العصر الذي يعيشه الروائي ولكنه يتخّذ من التاريخ ذريعة وشكلاً مغايراً للحكي. ويستطيع الروائي على الدوام الاستفادة من المادة التاريخيّة لما يحمله التاريخ من خيال وقدرة على إثارة ذهن ومشاعر القارئ، خاصّة إن كان التاريخ المعنيّ يتقاطع مع اهتمامات القارئ أو هوّيته الثقافيّة.

وقد ظهرت الرواية التاريخيّة أولاً في مطلع القرن التاسع عشر، وذلك في زمن انهيار نابليون تقريبًا، فقد أدت الثورة الفرنسيّة، وانتشار الفكر الثوري، وظهور الاتجاه القومي والاعتزاز به في

مختلف أنحاء أوربا إلى زيادة الاهتمام بالتاريخ والاستفادة منه.

وتاريخيًّا نجد الرواية التي تأخذ من بعض حوادث التاريخ أو شخصيّاته أساسًا لبنائها، قد نشأت في رحاب الرومانسيّة لأسبابٍ تاريخيّة وسياسيّة، منها الاعتزاز القومي، وأسباب فلسفيّة اعتنقها اكثر الرومانسيين، كالرغبة في الهروب ورفض الواقع المعاش، يأسًا منه أو ثورةً عليه»[١]، «وقد قدّم الرومانسيّون خدمة جليلة للرواية التاريخيّة، إذ طالبوا بإبراز الصبغة التاريخيّة، والإحساس بالعصر واستيعابه، وهذا ما نجده في روايات والتر سكوت»[٢] الذي يعدّ الأب الحقيقيّ للرواية التاريخيّة.

ويعدّ الروائي الأسكتلندي السير والتر سكوت مؤسس الرواية التاريخيّة حيث قدم العديد من الأعمال الأدبيّة ذات الصبغة التاريخية في القرن التاسع عشر، وقد لاقت الرواية التاريخيّة نجاحًا منذ ظهورها في بريطانيا، ومما هيّأ له مكانته في الرواية براعته في السرد لتاريخ الرواية في الأدب العالمي، وثقافته العالية ووطنيّته الإسكتلنديّة القويّة، وعدم اعتماده على التاريخ بشكلٍ كلّي، فسلك بنظرته الجديدة إلى التاريخ طريق الشهرة والمجد، وتقوم الرواية التاريخيّة عنده على إحياء مرحلة تاريخيّة وبعثها من جديد من خلال شخصيّات تاريخيّة ذات شهرة بالإضافة إلى شخصيّات خياليّة يبتكرها الكاتب، يعرض من خلالها صورة العصر المراد بعثه وتسليط الضوء عليه من النواحي التي يتوخّاها.

وتميّز والتر سكوت بأنّه يعرض بشكلٍ فنّي الواقع التاريخيّ بتصويره للأزمات الكبرى في التاريخ الإنجليزي، ويجد في هذا الاتجاه تعبيراً مباشراً في الطرقة التي يبني بها حبكته، ويختار شخصيّته المركزيّة. والبطل في أيّة رواية من رواياته هو دائمًا سيّدٌ إنجليزي أقلّ من البارز أي

(١) عبد الله، محمّد حسن، الواقعيّة في الرواية العربيّة، الهيئة المصريّة للكتاب، ط١/ ٢٠٠٥، ص١٩٢.

(٢) المرعي، فؤاد، المدخل إلى الآداب الأوربيّة، جامعة حلب، ط٢/ ١٩٨١، ص١٩٢.

متوسّط، فهو يملك بصفة عامة درجة معيّنة من الذكاء العملي، وشيئًا من الثبات الأخلاقي والاحتشام الذي يرتفع حتّى إلى القدرة على التضحية بالذات[١].

وقد نادى والتر سكوت بالحرية القصصيّة وعدم التقيّد بالتاريخ، ولذلك فقد تعرّض لانتقادات انّه كان يعبث بالتاريخ ويحوّره في سبيل القصّة[٢]، لكن ذلك بالضبط كان مثار إعجاب الروائيين في أوربّا ومن ثمّ فقد سلكوا سبيله في الرواية التاريخيّة[٣]

وقد استند والتر سكوت في رواياته التاريخيّة إلى الطابع الشعبي، وصوّر تحوّلات التاريخ الكبرى بوصفها تحوّلات الحياة الشعبيّة، ومعنى ذلك أنّه اهتم بتأثير الحركات الإيديولوجيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة على التحوّلات الكبرى في التاريخ، وكان هدفه الكبير من خلال ذلك إظهار العظمة الإنسانيّة من خلال تجلياتها الشعبيّة، جاعلاً من التاريخ حيّاً ومؤثّراً[٤]، وكان سكوت مدفوعاً بحسٍ قوميّ وطنيّ، يظهر من خلال فخره بشعبه وتاريخه.

والحقّ أّن الرواية التاريخيّة اتخذت معالمها الرئيسة من خلال روايات والتر سكوت الذي اعتنى بحريّة الخلق والقص والخيال ضمن الإطار التاريخيّ، وكان ذلك تمهيداً لمجمل الأعمال الروائيّة التاريخيّة التي سارت على هديه، وقد اهتمت ببيان رؤية وإيديولوجيّة الروائي التاريخيّة، وكان من شأن ذلك الدف من أجل قراءة جديدة للتاريخ وتوطيد لما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بتاريخه.

ولم تلبث أن ظهرت الروايات التاريخيّة لاحقًا في الأدبين الروسي والفرنسي. فقد امتدّ تأثير

(١) الأعرج، واسيني، الرواية التاريخيّة أوهام الحقيقة، مهرجان الدوحة الثقافي الرابع، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، ندوة الرواية التاريخيّة، ٢٤ آذار، ص٣٢.

(٢) نجم، محمّد يوسف، فن القصّة، دار الثقافة، بيروت، ط٧/ ١٩٧٩، ص١٦٠.

(٣) السعافين، إبراهيم، تحوّلات السرد، دار الشروق، الأردن، ط١/ ١٩٩٦، ص١٦٣.

(٤) الأعرج، واسيني، الرواية التاريخيّة أوهام الحقيقة، ص٣٥.

الروايّة التاريخيّة من اللغة الإنجليزيّة إلى اللغتين الفرنسيّة والروسية؛ وعرفت الرواية التاريخيّة في فرنسا على يد الأب ألكسندر دوماس، ثم اشتهرت على يد فيكتور هوغو الذي قدّم عدداً من الروايات التي تناولت المواضيع التاريخيّة في فترة زمنيّة ملتهبة كانت تعيشها أوربا، أما في روسيا فقد ظهرت الرواية التاريخيّة على يد ليو تولستوي الذي قدّم رواية الحرب والسلام التي مثّلت ملحمة كبرى تحدّثت عن الحرب الفرنسيّة الروسية ومحاولة نابليون أن يحتلّ روسيا، وقد عدّت هذه الرواية من أهم الروايات التاريخية وتُعدّ تلك الرواية من أعظم الروايات التاريخيّة على مرّ العصور.

أمّا الرواية التاريخيّة في العالم العربي فقد ظهرت في مرحلة مبكرة من تاريخ ظهور الرواية، وقد ارتبط ظهورها بفترة النضال والكفاح ضد المستعمر، وكان دأب الروائيين الأوائل تذكير العرب بأمجاد الأمّة ومحاولة ربط ذلك بمآسي العصر الحالي، وكان أوّل من قدّم في الرواية التاريخيّة جرجي زيدان ثم جاءت روايات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وجمال الغيطاني وإسماعيل فهد إسماعيل وغيرهم.

ولعلّ ما سبق يؤكّد على انتماء ثلاثيّة الروائي إسماعيل فهد إسماعيل المعنيّة إلى هذا الجنس من الرواية، وهو لا يخرج عن إطارها، بل على العكس نراه يتمثل منهج للرواية التاريخيّة في التفاعل مع التاريخ وتحويره خدمةً لمقولاته، ولا نخطئ عندما نقول إن إسماعيل ينتصر للإيديولوجيا على التاريخ في روايته التاريخيّة، إذ ليس من وظيفة الرواية التأريخ والتوثيق.

يعلق الدكتور الرشيد بو شعير على رواية النيل يجري شمالاً بقوله: «إن إسماعيل فهد إسماعيل يخاطب المتلقي بوصفه (الراوي) مؤلّفًا فعليًا يلقي الضوء على المصادر التاريخية لعمله، خصوصًا ما يتصل بشخصية (مراد بك) وانهزامه أمام حملة نابليون بونابرت على مصر (....) وهذه المصادر التاريخية تتمثل في كتاب (تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار) لعبد

الرحمن الجبرتي، وكتاب (تاريخ الأقطار العربية الحديث) للمستشرق لوتسكي. وإذا كانت هذه المقدمة تُغني دارس(النيل يجري شمالاً) عن أي تخمين يتعلق بمصادر الكاتب ويؤكد له بما لا يدع مجالاً للشك في مرجعية هذا العمل، فإنها تذيع سراً إبداعيـًا يربك الخطاب الروائي الذي يقوم على التخييل أساسـًا»[١].

ولعل في ذلك توصيف لأزمة السرد التاريخي التي وقع فيها إسماعيل فهد إسماعيل، ففي هذه الرواية لم يقدّم الراوي تاريخـًا حقيقيّـًا وليس من مهّمته أن يكون كذلك، لكن إسماعيل أربك القارئ بذكر مصادره التاريخيّة الدقيقة مما يُشكل على القارئ عندما يعمد الروائي إلى التحوير أكان يقرأ تاريخـًا حقيقيّـًا أم خيالاً، ومهما يكن الأمر فليس من وظيفة الراوي أو الرواية التأريخ لحدث ما بطريقة توثيقيّة أو حقيقيّة، فإنّ ذلك على الدوام لم يكن من مهمة الرواية وإن كانت تاريخيّة، وغاية طموح الروائي في الرواية التاريخيّة الاستفادة من الحدث والمادة التاريخيّة وتوظيفهما لتأدية مقولاته من خلال اعتماد تقنيات السرد المختلفة.

(١) بو شعير، الرشيد، هواجس الرواية الخليجية، كتاب دبي الثقافية، منشورات دار الصدى، دبي، الإمارات العربية المتحدة ، ديسمبر٢٠١٢م، ص١٦.

المبحث الثاني

تحليل الروايـة

المطلب الأول: الرواية في سياق الثلاثيّة (النيل يجري شمالاً).

تعود هذه الثلاثيّة زمنيًّا لحقبة الثمانينيّات من القرن العشرين، وقد تميّزت هذه المرحلة في الكويت خاصّة والعالم العربي عمومًا بالغنى والتنوع الفكري والإيديولوجي الأمر الذي حمل الكتّاب على الإنتاج والإبداع الأدبي بصورة معمقة أحيانًا فيها من الفنية والاسترسال في الاسترجاعات الزمنية بصورة بارزة بشكل وسم أدب تلك الفترة. وقد استمر الروائي إسماعيل فهد إسماعيل في هذه الفترة في عطائه الأدبي بصورة أكبر وأعمق؛ فصدر له العديد من الروايات في هذه الفترة مثل: «خطوة في الحلم» وثلاثيته: «النيل يجري شمالاً- البدايات» ١٩٨٣م وتلتها «النيل يجري شمالاً- النواطير» ١٩٨٤م وأردفها بـ«النيل الطعم والرائحة» ١٩٨٩م.

وكان واضحًا في تلك الحقبة من القرن العشرين بروز التوجهات والأيديولوجية، التي حملها كتّاب هذه الفترة بصورة واضحة، فكان التنوع الإيديولوجي سمة بارزة، وكان من أعلى الأصوات في هذا العصر الإيديولوجي إن صح التعبير كتّاب اليسار والقوميون، وهؤلاء الأخيرون هم الذين انضوى الكاتب الروائي إسماعيل فهد إسماعيل تحت لوائهم.

وتُعدّ رواية النيل يجري شمالاً: النواطير، الجزء الثاني في ثلاثيّة جزؤها الأول حمل اسم النيل يجري شمالاً البدايات، أما الجزء الثالث فقد حمل عنوان النيل يجري شمالاً: الطعم والرائحة. وهي رواية تاريخية بمعنى أنها تعتمد على التاريخ، ويبدأ الجزء الأول في نهايات القرن الثامن عشر حيث بدأ نابليون بالتجهيز لحملة عسكرية ضخمة لاحتلال مصر. وقد صرّح الكاتب منذ البداية أنه اعتمد على كتابات المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي الذي عاصر الحملة الفرنسية على مصر، والمستشرق لوتسكي، وقد حاول الروائي إسماعيل فهد إسماعيل من خلال الاعتماد على التاريخ أن يبني خيطًا دراميًّا يقدّم من خلاله رسالته السياسيّة التي تكشف مقولة الرواية.

تقوم الرواية على الصراع بين المصريين أهل الحق والأرض من جهة، وحكامهم المماليك الذين لا يختلفون عن المحتلين الجدد القادمين من فرنسا من جهة ثانية. فالطرف الأوّل يتمثّل بالشعب المصري الأعزل الذي لا يملك إلا هويّته ويخوض صراعًا اجتماعيًّا مرّاً مع حكامه المماليك بقيادة إبراهيم بك ومراد بك. ويكشف الروائي في الجزء الأول من الرواية كيف استبعدت السلطة العثمانية المؤهلين للحكم فيما قرّبت الغاشمين الأنذال الذين لم يكن همهم سوى الاستيلاء على البلاد ونهب ثرواتها، وكيف سعى مراد بك وجماعته إلى ظلم المصريين لدرجة أن هوايته كانت الاستيلاء على الفتيات وضمّها إلى حريمها، وبلغ من طمعه أنه كاد يعتدي على فتاة ثمّ تبيّن له أنّه والدها وهو لا يدري. كما يكشف الروائي كيف حاول حكام مصر من المماليك تشديد قبضتهم على مصر من خلال الإمعان بالتمسح بالحكم العثماني ذي الصفة الشرعية آنذاك، إذ كان مراد بك يردد أن مصر أرض عثمانية خلال الرواية، لكنه حينما وصله نبأ نزول الفرنسيين على شاطئ الإسكندرية أرسل إلى محمد كريم يذكّره بعروبة مصر من أجل أن يستثير حميّة الأعراب من المقيمين حول حواضرها. وتكشف الرواية عن بداية تكون الشعور الوطني وتبلوره في مصر كنتيجة حتميّة للحملة الفرنسيّة على مصر.

في الجزء الثاني من هذه الثلاثيّة يتقدّم الروائي تاريخيًّا ويتناول تبعات الاحتلال الفرنسي الفعلي كما تسرد الرواية الوقائع التاريخيّة الحاصلة، على أنّ استهلال الرواية يكشف عن سبب التسميّة ويبدو أنه اتخذه بإيحاء من الشاعر المصري أمل دنقل وفي هذا الاستهلال إشارتان مهمّتان تمثّلان معًا رمزاً موحيًا في فضاء النص الروائي، فالأول يتعلق بما أورده لأمل دنقل[١]:

عيد بأيّة حالٍ عدت يا عيد بما مضى؟ أم لأرضي فيك تهويد

مالت نواطير م صر عن عروبتها طوعًا فلا عود ولا عيد

(١) إسماعيل، إسماعيل فهد، النيل يجري شمالاً- النواطير، دار المدى للطباعة والنشر، سوريا ط٢/ ١٩٩٦، ص٧.

ولا شكّ أنّ لهذا الاقتباس والاعتماد على الشاعر أمل دنقل يوحي ما يوحي ويكشف حقيقة موقف الروائي القومي ويفصح عن السياق الذي تأتي ضمنه هذه الرواية.

أما الإشارة الثانية فهي ما نقله الروائي عن كتاب الجبرتي فيما يتعلّق بهزيمة مراد بك الذي انهزم هزيمة منكرة أمام الفرنسيين ولم يعهد عنه أنّه انتصر في حربٍ باشرها. والحقيقة أنّ مراد بك الذي ترك المصريين لوحدهم أمام الجيش الفرنسي المدجج بالأسلحة الحديثة في معركة إمبابة، التي ربّما أراد بها كيف ترك المصريون مرّة أخرى ليحاربوا وحدهم عام سبعةٍ وستين وتسعمئة وألف.

لقد جاء نابليون إلى مصر وكان يستغرب من رضوخ المصريين لحكام أجانب (يقصد المماليك الشركس مراد بك وإبراهيم بك)، وكان يريد الجواب عن الباعث الذي يجعل المصريين يرضخون له، فكان الجواب هو رضوخهم لسلطة رجال الدين.

وتكشف الرواية عن منظومة القيم الثقافية التي تحكم منطق المصريين عمومـًا وهي ما تسفر عن الوجه الإسلامي العربي لمصر، فحين كان نابليون يسعى لاستمالة المصريين كان يواجه دومـًا بمقاومة من الأعراب (البدو) ورغم أن هؤلاء البسطاء لم يكونوا مسلحين وبعيدين كلّ البعد عن مظاهر الحضارة والمدنيّة إنّما كانوا يحملون منظومة من القيم المستحكمة تحركهم باستمرار لمواجهة نابليون وجيشه، تحت مسمّى الجهاد، ولذلك فقد فطن نابليون قبل وصوله إلى مصر إلى ضرورة مواجهة هؤلاء البدو وحرص على أن يصطحب معه من يتكلم العربيّة من المالطيين، الذين أخبروا المصريين بتكليف منه، أنّ نابليون مسلم وأنّه إنّما جاء لتخليص مصر من الظلم والاضطهاد الذي يعاني منه المصريون.

في الجزء الأخير من الثلاثيّة الذي جاء بعنوان النيل الطعم والرائحة، تتعمق الرؤية السياسيّة ويكشف التوظيف السياسي عن نفسه بشكلٍ سافر إذ تدور أحداث الجزء الثالث من الرواية حول

بطل فلسطيني من غزة جاء إلى مصر قادمًا من حلب، بعد أن نال تصريح الدخول من بيروت فيما كانت وجهته تونس، وكان هدفه الحقيقي من هذه الرحلة هو اغتيال الجنرال كليبر الذي خلف نابليون في مصر، فهذا العربي الجميل رمز بكل المقاييس لكل ما هو عروبي في رسالة الكاتب، أما انتقاء هذه الشخصيّة التاريخيّة ففيها أنّه عاد من أعماق التاريخ من غزّة الفلسطينيّة ليطيح برأس عرّاب كامب ديفيد كما أطاح سابقًا برأس كليبر، وثمّة تقابلات عجيبة بين التاريخ الحقيقي لهذه الشخصيّة وما أريد لها من رسالة في الرواية، فاتفاقية كامب ديفيد وما ترتب عليها من خروج الفلسطينيين من بيروت يصب أيضًا في ذات الرسالة، وسليمان المغمور هو الإنسان العربي الرافض لهذا الخنوع والاستكانة والتأقلم مع الوضع الذي يفرضه المستعمر بالتآمر مع قوى الأمر الواقع المماليك سابقًا والطغاة العرب في عصر كتابة الرواية.

وثمّة ما يشير بقوّة إلى فكرة العروبة التي تحمّل بها شخصيّة سليمان الحلبي منذ بداية الرواية، فقد عاش حياة شاسعة جغرافيًا بالرغم من محدوديتها الزمنيّة، وقد انطلق في رحلته الطويلة من غزّة ماراً بعمّان ثمّ اتجه إلى بيروت حيث كان السفر إلى القاهرة وفيها أنهى مهمّته وانتهى هناك، وربّما لا يخلو من مغزى أنّ سليمان الذي جاء إلى مصر لأجل هدفٍ واحد هو اغتيال صاحب الفخامة (كليبر)، قد أقام علاقة عاطفيّة نقيّة مع فتاة مصريّة تدعى شيرين جسّدت ملامح الشعب المصري العربي وسط ظروف القهر والغزو، فسليمان الفتى العربيّ العروبي بهذه المقاييس إنّما جاء لاستنقاذ شرف مصر بكل ما تحمله شيرين الفينوسيّة الجميلة من كليبر الجديد الذي كان يعيث فساداً في مصر السبعينات، حيث الانفتاح الاقتصادي والاعتراف بإسرائيل وإجهاض حق العودة و الوطن السليب وكل ما كان من تنازلات في طريق تصفية القضيّة الفلسطينيّة والحقوق العربيّة.

المطلب الثاني: النيل يجري شمالاً- النواطير:

يتناول هذا الجزء من الثلاثيّة وقائع تاريخية حدثت في مصر بعيد الثورة الفرنسية إذ أقدم نابليون على غزو مصر عام ١٧٩٨م التي كانت تخضع إبّان ذلك الغزو لسلطة عثمانية إسميّة، فيما كان يحكم القبضة عليها أميران مملوكيان شقيقان؛ هما مراد بك وإبراهيم بك، ويمثّل كلٌّ منهما شخصيّة رئيسيّة في الرواية، وتدور أحداثها الرئيسة في مدينة الإسكندريّة حيث يجري الإنزال الفرنسي بعد قصف مدينة الإسكندرية بالمدفعيّة الحديثة، فيما تظهر شخصيّة محافظ هذه المدينة المعيّن من قبل السلطة المملوكيّة الحاكمة وهو السيد محمد كريم وأحد أعوانه المسمّى عبد الرحمن.

تتعامل الرواية مع الحدث التاريخيّ بنوع من التفسير من خلال المناوبة في الموازبة أو التركيز أو الإغفال لشخصيّات أو أحداث أو أمكنة، إذ أنّها تحمل في النهاية رسالة يمكن كشفها من خلال عمليات الترميز المكثّف والإسقاطات غير المباشرة على الواقع في عصر الرواية، ومن ذلك التركيز على أعراب كاشف البحيرة الذين يُؤلبون من قبل السلطات الحاكمة (المماليك) من أجل التصدّي للحملة الفرنسية لكنهم يفرّون إلى الصحراء بفرار قادتهم، وتسلط الرواية الضوء على هؤلاء القوم وحالتهم البدائيّة فهم منذ البداية متطوّعون لا يحملون من السلاح إلا بعض المبادئ والحميّة، أما أسلحتهم القتاليّة فلا تعدو أن تكون إلا العصي والسواطير، وتكشف الرواية عن مدى قطيعيّتهم إذ كانوا يتجمّعون لنداء مضطهديهم ويحشرون إلى حرب لا قدرة لهم عليها، رغم معرفتهم أو عدم معرفتهم بصعوبة الحرب مع الجيش الفرنسي المجهّز بالمدفعيّة الحديثة، والبنادق المطوّرة سريعة الطلقات، كما أنهم يهربون حال سماعهم بهروب قادتهم المحرضين، إذ تختفي مبادئهم بسرعة في هذه الحالة، لكنّهم سرعان ما يعاودن الكرّة بعد جولة تحريضيّة جديدة من قبل مضطهديهم المماليك، رغم كلّ ما تلقّوه من خسائر ورغم أن بعضهم قُتل دهسـًا بالأقدام أثناء الانسحاب الأخير.

فيما يتم الكشف عن الأوضاع الاجتماعيّة من خلال الشخصيتين الثانويتين عبد الباسط ونبويّة، حيث تظهر شخصيّة الفتى عليوة صديق عبد الباسط، الذي يقع في شرك حبائل نبوية (زوجة عبد الباسط) وتقوم بينها علاقة غير شرعية(١).

من الشخصيات الثانوية في الرواية نجد أيضاً شخصية الجندي الفرنسي كلود وقائده المباشر العريف فرانسوا، حيث تكشف الحوارات المتكرّرة بينهما عن انقسام الفرنسيين تجاه هذا الغزو، فكلود الجندي الفرنسي البسيط يكشف عن عميق امتعاضه لهذا الغزو، ويشعر بنوع من الغبن الذي يقوده لبناء مجد شخصي لشخصٍ طموح هو نابليون، ولا يرى في ذلك أي فائدة لوطنه فرنسا، في حين يدافع العريف فرانسوا عن فكرة الغزو مؤمناً بحقيقة المؤامرات التي تحاك ضد وطنه فرنسا، وتأتي ضرورة الحملة الفرنسية على مصر حسب اعتقاده ضمن مشروع حماية الثورة الفرنسيّة التي ما زالت في المهد، فيما يتربّص بها الأعداء من كلّ صوب ولا سيّما بريطانيا العظمى(٢).

كما تكشف الحوارات التي دارت بين هاتين الشخصيّتين عن موقف فلاحي فرنسا من الثورة الفرنسيّة، وقد عيّنوا بالرواية باسم الشوّان الذي لم يتوانوا عن إبداء مخاوفهم من الأفكار التحرريّة ورغبتهم الحميمة في العودة إلى النظام الملكي وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الثورة، ولذلك فقد كان العريف فرانسوا يتبنى وجهة النظر السياسية الرسميّة في فرنسا تجاه الأحداث، فقد كان يخاطب الجندي كلود بنفس العبارات المكرّرة بين النخب السياسيّة الحاكمة في فرنسا آنذاك، قائلاً، أنّك لا تستطيع حماية الثورة داخل فرنسا فالشوّان بالنهاية هم فرنسيون وليس عليك قتالهم لحماية الثورة، بل لا بدّ من إشغالهم في صراعٍ خارجيّ، إنّ محاربة الثورة المضادة لا يجب أن تكون داخل فرنسا بل يجب أن تكون خارجها في غزو مصر واحتلال مالطا،

(١) يُنظر: إسماعيل، إسماعيل فهد، النيل يجري شمالاً- النواطير، ص٤١.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ص٦١ وما بعدها.

في مواجهة الأسطول البريطاني، وفي توسيع رقعة الإمبراطوريّة الفرنسيّة[١].

في بداية الرواية تظهر شخصيّة السيدة نفيسة وهي زوجة حاكم مصر المملوكي مراد بك، التي تستعين بحاكم مصر الآخر إبراهيم بك من أجل إطلاق سراح الفرنسيّة أنطوانيت التي كانت في سجن القلعة، وتكشف الأحداث أن السيدة نفيسة قد دفعت مالاً إلى إبراهيم بك ليتم إطلاق سراحها، لكن ذلك لم يتم؛ إذ تكشف الأحداث عن موت أنطوانيت قبل إطلاق سراحها، فيما يكشف السرد عن علاقة حب شاذّة جمعت بين السيدتين المصريّة والفرنسيّة[٢].

كما ظهر نابليون في هذه الرواية كشخصيّة روائيّة، لها بنيتها وفلسفتها المعهودة، التي تظهر من خلال الحوارات، فعندما جاء إلى مصر كان يسأل ويبحث عن الباعث الذي يجعل المصريين يرضخون له، وسرعان ما يسمع: «لرجال الدين في الإسلام سلطة راسخة على الرعيّة، تشبه إلى حدّ كبير ما كان لرجال الدين المسيحي من سلطة لأيام ما قبل الثورة في فرنسا»[٣] وإن كان المسيحي يرتاد الكنيسة يوم الأحد فإنّ المسلم يرتاد المسجد خمس مرات في اليوم فضلاً عن الجمعة حيث يستمع لخطبتها وكل ما فيها من توصيات وإملاءات يريد ولاة الأمر تمريرها من خلال الخطباء[٤].

وبحسب نبيل سليمان فإنّ الإنجاز الأكبر للكاتب في هذه الرواية كان في تعدّد لغاتها، حيث كان للجبرتي لغته، ولمنشور نابليون لغته، كما يظهر في مفتتح عدد من الفصول، كما كان للكاتب اللغة المضارعة للغة الجبرتي كان نقرأ: «كان زمنًا ولا كلّ الأزمان، فلا أمان ولا اطمئنان». وكانت لإسماعيل فهد إسماعيل لغته المعهودة في الحوار بين الشخصيّات، سوى أنّه هذه المرة

(١) يُنظر: إسماعيل، إسماعيل فهد، النيل يجري شمالاً- النواطير ، ص٦١.

(٢) المصدر السابق ، ص١٤.

(٣) المصدر السابق، ص٧٢.

(٤) يُنظر: المصدر السابق، ص٧٢ وما بعدها.

ندر أن ترك الجمل معلّقة. وبالإضافة إلى ذلك كان للكاتب لغة أخرى تتخفّف من التوتر المعهود، وتتوشّى أحيانًا بالسخرية، وتسترخي فيها الجمل وتطول، كان نقرأ: «يقال، والعهدة على الجبرتي، إنّ أيّ أميرٍ من هؤلاء الأمراء قادرٌ على تسيير، ومن ثمّ تجهيز جيش صغير أو كبير إلى حدّ ما، لو أقنعته ضرورات صراعاته، أو تحالفاته لا فرق»، أو كأن نقرأ: «مما لا يروى عن الجبرتي أنّ المحتشدين في القاعة الكبرى من القصر العيني وهم بسبيلهم لفضّ اجتماعهم، استدركهم اقتراحٌ قدّمه شيخٌ أزهريّ نصف مغمور: ليس أفضل من الدعاء لفضّ هذا اللقاء»[١].

على الرغم من إشارتنا السابقة إلى ما يقوم به الروائي إلى تعمّد تحوير التاريخ من خلال الحوار والسرد، إلا أنّ الخط العام يبقى يسير ضمن الأحداث التاريخيّة الكبرى التي رافقت الحملة الفرنسيّة على مصر، لكنّ الكاتب لا يترك للقارئ مسؤولية البحث عن النتائج التاريخيّة، أو الأسباب المباشرة لكل حدث تمّت الإشارة إليه، بل نراه يتعامل مع الحدث وفق رؤية تاريخيّة توثيقيّة؛ إذ يسارع إلى تسجيل ما سبق أو ما نتج من خلال نقاط رئيسة، تأخذ شكل الدراسة التاريخيّة، فيما يعتمد على الوثائق التاريخيّة للحملة التي أشار إليها باعتماده على الجبرتي، أو على التحقيقات التاريخيّة اللاحقة والسجلات والوثائق في مصادرها المعروفة التي أشار إليها ضمن كتاب المستشرق لوتسكي، أو من خلال ملاحظاته الشخصيّة على الأحداث.

ومن عيوب الرواية المباشرة الواضحة حيث تعد من العيوب الملموسة في الرواية فالأحداث والحوارات على تنوّعها لا تمنح القارئ دوراً في الاستنتاج أو التوقّع، إذ يتولى الروائي نفسه هذه المهمة بمباشرة المؤرخ الذي لا يدع لقارئه مهمّة النظر أو التأويل أو التفسير. ومن ذلك أن الحوارات التي جرت بين العريف فرانسوا والجندي كلود كشفت بشكلٍ مباشر عن وجهات نظر

(١) يُنظر: سليمان، نبيل، الحداثة الروائيّة الخاصة بإسماعيل فهد إسماعيل، ضمن كتاب إسماعيل فهد إسماعيل، كتابة الحياة، وحياة الكتابة، مجموعة مقالات لـ علي طالب، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة عجمان، ص١١٠.

الفرنسيين المعروفة تجاه الثورة والحملة في ذلك العصر، ولم تقدّم أي جديد ولم تترك هذه الحوارات للقارئ أن يجد متعة الاكتشاف إذ قدّمتها له بدون أدني جهد منه، ولم يكن الأمر يتطلّب من القارئ أن يستشف شيئًا أو أن يقرأ بين السطور بل كان كلّ شيء جاهزاً مفسّراً ومؤوّلاً على الطريقة التاريخيّة. وأكثر من ذلك نرى جواب صحب نابليون حينما سألهم عن السبب الذي يدفع المصريين للاستكانة والانصياع لحاكم أجنبي فكان الجواب منهم مباشراً، مما يوحي بالفجاجة وبالقضيّة التي يعتقد بها المؤلف بلا مواربة أو تشويش، والأمر نفسه حدث في نهاية الرواية عندما أخبر صحب نابليون نابليون أن العرب أمة لا تقرأ[1]، فقد بدت الجملة مباشرة فجة بالرغم من الرمزية الواضحة التي انطوت عليها. ولكن ربما يغفر للكاتب أنّه كان يريد دفع القارئ نحو الغامض غير المفسر، وهو هنا إمكانية رسم التقابلات بين الواقع والتاريخ، وهذا هو الذي لم يكن واضحًا أو مباشراً فيه، بل تعمّد تركه للقارئ.

ومن عيوب الرواية أنها تفتقد حقيقةً للخيط الذي ينظم العمل الروائي التقليدي، فمن الصعوبة أن يعثر القارئ على حبكة، أو عقدة رئيسة تصل إليها الأحداث المختلفة في الرواية ثمّ تتجه نحو الحل، إذ تظهر هذه الأحداث على شكل لقطات فلميّة غير مترابطة في حين أنّ الزمان والشخصيات والأمكنة تبقى العوامل المشتركة التي تضبط إيقاع هذه الأحداث لتدفعنا على الاعتقاد في أننا نتابع عملاً روائيًا واحداً متعدّد البطولة، وبين أبطاله بطل غير مقصود هو نابليون، لكنّ في الرواية من التحفيز والتشويق ما يكفي، إذ تصبح المادة التاريخيّة ـ المعهودة غالبًا لدى القارئ ـ عاملاً مهمًا يحثّ القارئ على المتابعة والتأمّل بهدف الوصول إلى غاية الكاتب من كل هذا السرد وكلّ هذا الحوار؛ ضمن كلّ هذا التاريخ الموثّق.

(١) سليمان، نبيل، الحداثة الروائيّة الخاصة بإسماعيل فهد إسماعيل، ضمن كتاب إسماعيل فهد إسماعيل، كتابة الحياة، وحياة الكتابة، ص٢٥٣.

المطلب الثالث: الرمزية في الرواية:

يتأسس بناء الرواية على المادة التاريخيّة كما يتضح، وثمّة ما لا يمكن إنكاره، ولعلّه النقطة الأكثر إضاءة في مجمل الرواية، ألا وهي الحالة الرمزية التي تنطوي عليها الرواية، ولعلها القضيّة الفنيّة الأكثر إلحاحاً في سياق الثلاثيّة، وفيما يخصّ الجزء الثاني الذي هو موضوع البحث، فإننا لا نقدّم جديداً إذا قلنا إنّ هاجس الكاتب السياسي المُعاش كان طاغياً لتوظيف التاريخ وتحويره لخدمة أجندته السياسيّة ونزوعه العروبي الواضح، الذي غشّى به الشخصيات وحاول استثمارها من خلال الأحداث التي تناولها، ولذلك كان للفعل الترميزي أثره الواضح الذي يبرر العمل الروائي ككل.

ويبدأ الفعل الرمزي واضحاً منذ البداية، إذ اختار الكاتب عنواناً ثانويّاً لروايته وهو النواطير الذي استحضره من خلال تناصّ موفّق أو تلميح للشاعر أمل دنقل في تناصّه المعروف مع المتنبّي[١]:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

والمعروف أن هذا البيت قاله المتنبي قبل ألف عام تقريباً في معرض هجائه لكافور الإخشيدي حاكم مصر آنذاك، وقد استفاد الشاعر أمل دنقل من القصة كما استفاد من قصيدة المتنبي في ديوانه البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، يقول[٢]:

عيدٌ بأي حالٍ عدت يا عيد؟

بما مضى، أم لأرضي فيك تهويد؟

نامت نواطير مصر عن عساكرها

وحاربت بدلاً منها الأناشيد!

(١) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي، دار بيروت، ١٩٨٣م، ص٥٠٦.

(٢) دنقل، أمل، الأعمال الشعرية الكاملة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م، ص١٩٠.

ناديت: يا نيل هل تجري المياه دمًا لكي تفيض،

ويصحو الأهل إذ نودوا

عيدٌ بأي حالٍ عدت يا عيد!

أمّا الكاتب فقد استهل الرواية بمقتطف من أمل دنقل يقول فيه[١]:

عيد بأيّ حالٍ عدت ياعيد... بما مضى؟

أم لأرضي فيك تهويد

مالت نواطير مصر عن عروبتها

طوعًا فلا عود ولا عيد

والواقع أنّ استهلال الرواية يكشف عن سبب التسميّة ويبدو أنه اتخذه بإيحاء سببه تطابق بين موقفي كل من إسماعيل ودنقل، وأكثر من ذلك أن الرؤية السياسية المتطابقة بينهما دفعت الأوّل للتناص مع المتنبي الذي هجا حاكم مصر الأجنبي، فيما جاء إسماعيل لمحاكمة حاكم مصر المملوكي الأجنبي في عصر لاحق، ولا شكّ في أن هذه الإشارة التناصيّة البادية في الاستهلال مفتاح الرواية ومقولتها، ولهذا لا يخطئ مصطفى عبد الغني عندما يصنّف الروائي إسماعيل ضمن كتّاب الاتجاه القومي.

ويدور الاستهلال حول الثعالب اللاتي بشمن في بيت المتنبّي، وهم الذين عوّضهم دنقل بالعساكر أو العسكر (الحكام العسكريون الذين آلت إليهم الأمور)، وله موقفه المعروف من هذه "الذريّة اللعينة" حسب ما أُثر عنه، في حين أنّ الثعالب أصبحوا هم الحكام المماليك في رواية إسماعيل، كما أنّ عنوان الرواية الرئيسي (النيل يجري شمالاً) يتناص أيضًا مع قصيدة دنقل وإن لم يشر الكاتب إلى ذلك في الاستهلال ولا سيّما قول دنقل: ناديت: يا نيل هل تجري المياه دمًا

(١) إسماعيل، إسماعيل فهد، النيل يجري شمالاً- النواطير، ص٧.

لكي تفيض...[١].

ويبدو أنّ شأن الثعالب في مصر قضية شائكة، وقد عمل المتنبي على تكريسها والإشارة إليها أبداً، فثعالب مصر في عصر كتابة الرواية أعمت قلوبهم المصالح الآنية فسخرت أموالها للفتك بأبناء مِصر، فهل نامت نواطير مِصر عن ثعالبها؟ وهل غفل حُراس مِصر عن عساكرها ولصوصها؟ أين أحرار وشرفاء المصريين من كل ما يحدث فيها وكيف يسكت المصريون عن كل ذلك. أين هم النواطير الحراس النائمون المائلون، وهاهنا القضيّة التي جعلت من النواطير عنواناً ثانويّاً للرواية وقد أراد بهم الروائي المصريين، ثمّ نكتشف في المتن أنّهم الأعراب البسطاء المتخلّفون الجهلة الذين انصاعوا لحكامهم الثعالب والعسكر في عصر الرواية، وقارعوا الجيش الفرنسي حفاةً عراةً بالعصي والسكاكين، في حين حاربوا الجيش الإسرائيليّ بالأناشيد على حدّ ما يرى دنقل في استحضاره.

والأعراب في الرواية يحضرون بقوّة، ولعل الكاتب أراد من خلال التركيز عليهم توصيف حالة العرب الراهنة، ومن ثمّ أراد مقابلتهم بالشوّان الفرنسيين أعداء الثورة الفرنسيّة، الذين لم يخضعوا لحكم العسكر ولعل تلك المقاومة الداخليّة في فرنسا هي التي أعادت الثورة إلى النهج المستقيم بعد أن أراد نابليون أن يصنع من نفسه إمبراطوراً جديداً.

لقد أراد إسماعيل أن يكشف عن مدى الهشاشة التي تحكم المجتمع العربي من خلال فضح العلاقة الغراميّة غير المشروعة بين عطيات وصديق زوجها الفتى عليوة، ثمّ إنّ العلاقة الغراميّة الشاذة بين أنطوانيت ونفيسة زوجة مراد بك هي الأخرى علاقة لا شرعيّة بين الحاكم ومن يلوذ به من جهة والأجنبي المستعمر المتمثل بالفرنسية أنطوانيت من جهة أخرى، ولم يأت موت أنطوانيت في بداية الرواية إلا رغبةً من الكاتب في الكشف عن مصير المصالح الأجنبية، وقرب

(١) دنقل، أمل، الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٩٠.

فواتها، فالطغمة الحاكمة ترتبط مصالحها ببقاء هذا الأجنبيّ المحتل الذي سيخرج لا محالة فيما سينفضح أمر الحكام المتعاونين وينكشف.

ينقل الروائي إسماعيل عن كتاب الجبرتي فيما يتعلّق بهزيمة مراد بك في معركة إمبابة ويقول أنّه لم يعهد عنه أنّه انتصر في حربٍ باشرها. والحقيقة أنّ مراد بك الذي ترك المصريين لوحدهم أمام الجيش الفرنسي المدجج بالأسلحة الحديثة هي إشارة إلى الكيفيّة التي تُرِك فيها المصريون مرّة أخرى ليحاربوا وحدهم عام سبعةٍ وستين وتسعمئة وألف مما وضعهم مرّة أخرى أمام هزيمةٍ منكرة أسقطت حركة النهضة العربيّة مرّة ثانية في مصر(١)، ولعل غاية إسماعيل رسم المشهد نفسه مرّة ثانية من خلال قراءة تاريخيّة قد لا تعتد بالواقع التاريخي ولكنها تبني على أساس النتائج إذ ترسم رواية النيل يجري شمالاً في جزئها الثاني المتمثّل بالنواطير رؤية موازية للواقع المصري بدءاً من تلك الفترة التي أسست للنهضة الأولى وصولاً إلى الفترة المتشكّلة في سبعينيّات القرن العشرين حيث تمّ تقويض النهضة العربيّة الثانيّة التي بدأت بالمشروع القومي الذي أرسى له عبد الناصر وسرعان ما تمّ تقويضه على يد السادات.

وتكشف الرواية عن منظومة القيم الثقافية التي تحكم منطق المصريين عمومـًا وهي ما تسفر عن الوجه الإسلامي العربي لمصر، فحين كان نابليون يسعى لاستمالة المصريين كان يواجه دومـًا بمقاومة من الأعراب (البدو) ورغم أن هؤلاء البسطاء لم يكونوا مسلحين وبعيدين كلّ البعد عن مظاهر الحضارة والمدنيّة إنّما كانوا يحملون منظومة من القيم المستحكمة تحركهم باستمرار لمواجهة نابليون وجيشه، تحت مسمّى الجهاد، ولذلك فقد فطن نابليون قبل وصوله إلى مصر إلى ضرورة مواجهة هؤلاء البدو وحرص على أن يصطحب معه من يتكلم العربيّة من المالطيين، الذين أخبروا المصريين بتكليف منه أنّ نابليون مسلم وأنّه جاء لتخليص مصر من

(١) يُنظر: مصطفى، عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية العربية، عالم المعرفة، ع١٨٨، ١٩٩٠، الكويت، ص٢٦٤.

الظلم والاضطهاد الذي يعاني منه المصريون[١].

كان نابليون يدرك أن المصريين لن يصمدوا أمام تفوّقه النوعي في السلاح بيد أنّه كان يدرك أيضـًا أن سبب هزيمتهم تلك هو حكامهم الذين أرهقوهم جوراً وتخلّفـًا وبطشـًا حتى صنعوا منهم بالفعل أمّةً لا تقرأ، وهذا ما كان يبحث عنه عندما أجابه صحبه المالطيون عن سؤاله «كيف يمزّق المصريون الأوراق دون أن يطلعوا عليها؟ فيجيبه أحدهم: العرب أمّة لا تقرأ»، ونعود هنا للمطابق الحذرة مع التاريخ المعاصر لكتابة الرواية حيث يرد أن موشي ديان كان قد نشر خطة العدوان التي شارك فيها عام ستة وخمسين وتسعمئة وألف وعاد ليحتل بها مرّة أخرى أرضـًا عربيّة في سبعةٍ وستين حين سأله البعض مندهشـًا كيف نفّذ الخطة نفسها التي سبق أن نفّذها ونشرها، فقال كلامـًا قريبـًا من هذا: إن العرب أمّة لا تقرأ[٢].

نعم فالعرب أمة لا تقرأ بهذه العبارة المأثورة بما تحمله من حقيقة مرّة ومن فجاجة وتحكم سببه الاستعلاء والعنصرية من قبل العدو في الحالة الفرنسية في القرن الثامن عشر والحالة الإسرائيليّة في القرن العشرين أنهى إسماعيل فهد إسماعيل جزأه الثاني من رواية النيل يجري شمالاً.

(١) يُنظر: مصطفى، عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية العربية، ص٢٦٥.

(٢) يُنظر: مصطفى، عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية العربية، ص٢٦٥.

خاتمـــــة

على الرغم من اعتمادها على التاريخ الرسمي لمصر، فإنّ رواية (النيل يجري شمالاً) التي تقع ضمن الرواية التاريخيّة فسّرت التاريخ بمنطلق إيديولوجي وقد أراد كاتبها البحث عن معضلات العصر والحالة العربيّة المستعصية في تفسيرات تحاول قراءة التاريخ مرّة جديدة، ولذلك كثيراً ما نرى الرواية تبتعد عن التاريخ الحقيقي من خلال اعتمادها على الشخصيات التاريخيّة ومنحها حوارات مفترضة متخيّلة، كما ساهم في ذلك تشكيل حبكة درامية مختلقة بعيدة عن الحدث الحقيقي، وعلى هذا فالروائي إسماعيل فهد إسماعيل لم يخرج على السياق العام للرواية التاريخيّة، والحق أنّه روائي سياسي كما يقرّر روجر آلان الناقد الذي تناول الروائي إسماعيل في نقده لرواياته الأربع الأولى التي يقول عنها: «إنّ هنالك إشارات تاريخيّة كافية في النص تؤكّد مكان وقوع الأحداث، ولا شكّ الآن أن بإمكان القراء العراقيين أن يعثروا على إشارات ضمنيّة أكثر تحديداً من خلال تسلسل الأحداث وأقوال الشخصيات»[(١)].

إن إسماعيل فهد إسماعيل بحسب روجر آلان كما أسلفنا روائي سياسي يعتمد على التاريخ، ولهذا يعود روجر آلان ليؤكد ما سبق " كتب إسماعيل فهد إسماعيل الرواية الأولى من المجموعة (كانت السماء زرقاء)، كما يقول لنا الكاتب في عام ١٩٦٥ بعد أن تمّ سحق قوى الخير، وإذا كنا ما نزال نحتاج إلى دلائل أخرى على أنّ هذه الرواية، بل الرباعيّة كلّها تضع القضايا السياسيّة في مقدّمة اهتماماتها، فإننا نتعرّف على البطل الرئيسي منذ البداية وهو يحاول الهرب إلى إيران"[(٢)]. وهو ما أشرنا إليه في المقدمة من حيث أنّ القضايا الاجتماعية التي تناولها الروائي في مسيرته الأدبيّة جعلت النقاد يصنفونه ضمن أعلام الرواية الواقعيّة، كما أن خطه السياسي كان

(١) آلان، روجر، الرواية العربيّة مقدمة تاريخيّة ونقديّة، تر: حصّة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧، ص٢٥٠.

(٢) آلان، روجر، الرواية العربيّة مقدمة تاريخيّة ونقديّة، ص٢٥١.

واضحًا منذ بواكير أعمال وهو ما اتضح في رواية النواطير إذ حاول الكاتب على الدوام الانتصار للسياسي الإيديولوجي على الأدبيّ الفنّي، وهو كما عهدناه لا يتهرب من ذلك بل يجده ميزة، ويرى أن على القارئ أن يبحث ليفسّر دلالات رموزه وما يريد بها، وكما رأينا في المقدّمة فالكاتب إسماعيل فهد إسماعيل يتحدّث في حواراته عن أدلجة الثقافي، وتثقيف السياسة، ويرى أنّ "أي كتابة مسؤولة يُفترض أن تتقنّع بما هو إيديولوجي تظلّ تتستّر عليه المعاني، بيد أن تناسق الإيديولوجية واتّساقها مع مواقف الكاتب، وأيضًا تطابقها مع الظرف على موضوعيته، تثوّر الحوار الضمني لدى المتلقّي المعني، دونما طمس أو خدش لذكائه ومشاعره، يعدِّه طرفًا بارزاً في إعادة بناء وإنتاج النص الذي يتلقّاه القارئ.

المصادر والمراجع

- إسماعيل، إسماعيل فهد، القارئ أوسع أفقا من الكاتب، حوار على موقع الجزيرة الإلكتروني، أجراه هيثم حسين.

https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2014/2/8/

- إسماعيل، إسماعيل فهد، النيل يجري شمالاً، النواطير، دار المدى للطباعة والنشر، سوريا ط٢/ ١٩٩٦.
- إسماعيل، إسماعيل فهد، رواية «كانت السماء زرقاء»، دار المدى للثقافة والنشر- دمشق، ط٣.
- الأعرج، واسيني، الرواية التاريخيّة أوهام الحقيقة، مهرجان الدوحة الثقافي الرابع، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، ندوة الرواية التاريخيّة.
- آلان، روجر، الرواية العربيّة مقدمة تاريخيّة ونقديّة، تر: حصّة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧.
- بو شعير، الرشيد، هواجس الرواية الخليجية، كتاب دبي الثقافية، منشورات دار الصدى، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ديسمبر٢٠١٢م، ص١٦.
- دنقل، أمل، الأعمال الشعرية الكاملة، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م.
- السعافين، إبراهيم، تحوّلات السرد، دار الشروق، الأردن، ط١/ ١٩٩٦.
- طالب، علي، كتابة الحياة، وحياة الكتابة، مجموعة مقالات، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة عجمان.
- عبد الغني مصطفى، الاتجاه القومي في الرواية العربية، عالم المعرفة، ع١٨٨، ١٩٩٠، الكويت، ص٢٦٤.
- عبد الله، محمّد حسن، الواقعيّة في الرواية العربيّة، الهيئة المصريّة للكتاب، ط١/ ٢٠٠٥.
- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي، دار بيروت، ١٩٨٣م.
- المرعي، فؤاد، المدخل إلى الآداب الأوربيّة، جامعة حلب، ط٢/ ١٩٨١.
- نجم، محمّد يوسف، فن القصّة، دار الثقافة، بيروت، ط٧/ ١٩٧٩.

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

ملخـــص ٢٠٩٥

المبحث الأول: التعريف بالروائي إسماعيل فهد إسماعيل ٢٠٩٨

المطلب الأول: نبذة عن الروائي إسماعيل فهد إسماعيل. ٢٠٩٨

المطلب الثاني: بين الرواية والتاريخ. ٢١٠١

المبحث الثاني: تحليل الرواية ٢١٠٦

المطلب الأول: الرواية في سياق الثلاثيّة (النيل يجري شمالاً) ٢١٠٦

المطلب الثاني: النيل يجري شمالاً- النواطير ٢١١٠

المطلب الثالث: الرمزية في الرواية: ٢١١٥

خاتمـــة: ٢١٢٠

المصادر والمراجع ٢١٢٢

فهرس موضوعات البحث ٢١٢٣